شـــبان اليوم الجديد
في مصر المحروسة(*)
للدكتور زكي مبارك

من عادة المربين والمصلحين أن يُكثروا من اللوم والتثريب على أبناء الجيل الجديد ، ليصوروا عيوبهم تصويراً يخوّفهم عواقب التهاون والتفريط فى حقوق الأدب والأخلاق

وتلك وسيلة صحيحة من وسائل التهذيب ورثناها عن الأسلاف ، ولا بأس بالاعتماد عليها من حين إلى حين ، إذا سلكنا فى الدعوة إلى الأدب والأخلاق مسلك الترهيب ، وهو مسلك مطروق منذ أجيال طوال

ولكن التجارب علمتنى أن الترغيب أنفع من الترهيب ، ومن تلك التجارب عرفت أن التنبيه إلى القُوى الغافية فى صدور الشبان قد يدلهم على حقائق أنفسهم فينقلهم من حال إلى أحوال

والحق أن الشاب المصرى خُلِق ليكون رجلاً عظيماً ، ومهما أسرفنا فى سوء الظن بشبان مصر ، فمن المؤكد أنهم بالإضافة إلى أمثالهم فى الشرق والغرب أفضل وأشرف ، ومن النادر أن تجد شاباً مصرياً بلا آمال تضيفه إلى أكابر الرجال ، ولذلك شواهد يعرفها من يتصل بشبان « مصر » عن طريق الصحافة أو التأليف أو التدريس

الشاب المصرى يبحث فى كل لحظة عمن يدله إلى طريق المجد ، ولو نشرتْ الصحف إعلاناً عن كتابين يختص أحدهما بوصف حياة الهزل والمجانة ، ويختص ثانيهما بوصف حياة الجد والرصانة ، لكان الكتاب الثانى هو الكتاب المنشود ، لأن شبان هذه البلاد مفطورون على احترام الأدب السليم من شوائب الأمراض

وآية ذلك أن الذاتية الأدبية تجد أنصاراً من الشبان فى كل وقت ، وهم يتحمسون لها تحمساً لا يخطر فى البال ، وقد يتسامعون بمقالة جيِّدة ، فيجدُّون فى البحث عنها جدًّا يشهد بأنهم من أكابر أهل الأذواق والعقول

أكتب هذا وقد فاضت عيناى بالدمع حين تلقيت خطابات كريمة تصور فرح الشبان بالحديث عن أمجاد مصر المحروسة فى القديم والحديث ، وهم شبان كان التاريخ المُغرض حدَّثهم أن مجد مصر ليس إلا أُسطورة من أساطير الأولين

وآه ثم آه من التزوير فى التاريخ ! !

يا بَنِيَّ الأعزَّاء ، تذكَّروا — غير مأمورين — ثم تذكَّروا ...

ومن حبَّات دمعي أنظِم عِقد الحديث فأقول :

فى جميع الكنائس بالشرق والغرب تجدون صورة « العذراء » تحتضن « المسيح » وهو صبيٌّ فى المهد ، فهل تعرفون كيف علتْ تلك الصورة الرمزية ؟

علتها منذ أعوام بأنها تصوير لحنان الأمومة الرفيقة ، وجاز عندى القول بأن النصارى من اليونان هم المبدعون لذلك الرمز الدقيق . وهل ينكر أحدٌ فضل البراعة اليونانية على الديانة المسيحية ؟

لا جدال فى أن من ابتكر صورة المسيح تحتضنه العذراء كان أعظم مبتكر فى تاريخ الأخلاق . ولا جدال فى أن تلك الصورة كان لها تأثيرٌ عظيم فى عطف الآباء على الأبناء . ولا جدال فى أن تلك الصورة لم تُعرَف قبل ميلاد المسيح ، وقبل أن تتصل مأساته بتاريخ اليونان والرومان ، كما كنت أقول ، وكما كان يجب أن أقول ، لو طال جهلي إلى آخر الزمان !

(*) كان المصريون يصفون مصر بالمحروسة والحمية بعد نجاتهم من أخطار الحروب الصليبية

وأما صداقات الأدباء فالمناقشات فيها أعجب وأطرب ! نحن نأخذ على الأستاذ الحكيم أن يضرب لنا المثل بصداقات الأدباء فى أوربا لأنها لا تخلو من العلات ، فيجيئنا من يعترض فلا يكون اعتراضه إلا تكريراً لما قلناه ، وهو أن صداقات الأدباء الأوربيين ليست على المثال الذى تصوره الأستاذ الحكيم !

وأعجب من هذا وأطرب أن نشير إلى صداقات الأدباء فى انجلترا ونذكر بيرون وشلى فيكون الاعتراض أنهما لم يتقابلا فى انجلترا بل تقابلا فى إيطاليا ... فهما إذن قد أصبحا من أدباء الأمة الإيطالية وخرجا من عداد الأدباء فى الأمة الإنجليزية !

مثل هذا المحال لا نرد عليه ، ولا ننوى بعد اليوم أن نرد عليه . وحسبنا أننا لم نلق من قارئ هنا إلا وقد رد على ذلك الاعتراض بالإعراض

« الخرطوم » عباس محمود العقاد

ولكن الله اللطيف بعباده ، أراد أن يطبّ لجهلي برفق ولطف ، لأني طالب علم ، وطالب العلم لا يخطئه التوفيق !

فكيف اهتديت بعد ضلال ؟

رأيت صورة في الجزء الثاني من « التاريخ المصري القديم » لأخي وصديقي ، وصاحب الفضل الأعظم على أدبي وبياني ، عبد القادر حمزة باشا ، وهي صورة تغافلَ عنها عامداً متعمداً ، لأنتفع بمغزاها بعد أن يموت ، وكان يعرف أني لن أرثه إلا بالفكر والروح ، وذلك أشرف المواريث

عبد القادر الوفيّ أراد أن يمنحني فرصة من فرص التحليق في سماء الفكر والخيال ، فأثبت في الجزء الثاني من كتابه صورةً أعفاها من التفسير والتأويل ، عن علم لا عن جهل ، لأقول فيها ما أشاء .

فما تلك الصورة الرمزية ؟

هي صورة « إيزيس » وهي ترضع ابنها « حوريس »

وإذا عرفنا أن عبادة إيزيس كانت عقيدة اليونان والألمان والطليان والأسبان والفرنسيس والإنجليز أكثر من خمسة قرون أدركنا أن صورة « العذراء » وهي تحتضن « المسيح » ليست إلا صورة « إيزيس » وهي ترضع « حوريس » .

وإذن ؟

وإذن تكون مصر هي التي أبدعت فكرة الأمومة في الصور المسيحية . ثم ؟

ثم تكون مصر صاحبة الفضل على ما أبدعت صور العذراء من فنون .

عبد القادر لم يلتفت إلى الصورة التي وضعها في الجزء الثاني من كتابه النفيس ، لأن الموت صرفه عما يريد أن يقول ، أو لأنه أراد أن يترك تفسير المراد من تلك الصورة لأحد أصدقائه الأعزاء

والنتيجة أنه لا توجد صورة للعذراء في شرق أو في غرب إلا وهي مستوحاة من صورة إيزيس وهي ترضع حوريس .

ألم أقل لكم إن مصر هي وطن المعاني ؟

من كان يصدّق أن مصر هي الوطن الأصيل للصورة التي يخضع لصولتها الفرنسيس والإنجليز والأسبان والطليان والألمان ؟

لم يَكفُر أحدٌ بأقبح مما كفر المصريون ، ولم يؤمن أحد بأوثق مما آمن المصريون ، لأن مصر هي غاية الغايات في التعصب للكفر والإيمان .

وهل كفرت مصر في أيامها الخوالي حتى نجعل الكفران طَوراً من أطوارها في التاريخ ؟

إن القول بتعدد الآلهة كان في إحدى مراحل الإنسانية صورة من صور الهداية ، وهو لم يصدُر عن عناد ، وإنما صدر عن يقين ، ولله حكمة عالية في تنشئة الأفهام على نظام تنشئة الأبدان . فهو يسمو بها رويداً رويداً بترفق وتلطف ، إلى أن تقوى وتستحصد ، ثم يتركها لتصارع وتجالد في ميادين الزيغ والارتياب .

وتاريخ مصر يشهد بأنها فُطرتْ على إيثار الجد في تناول المعاني ، فكانت في عصر الوثنية أعظم أمم الوثنية ، وكانت في عهد النصرانية أول أمة أرخت بمصارع الشهداء ، فلما هداها الله إلى الإسلام كانت الحافظة الواعية للأمجاد العربية والإسلامية ، ولو قال قائل بأن مصر هي التي وقت العروبة والإسلام من تطاول الغرب وتخاذل الشرق لكان أصدق الصادقين .

إسألوا العلم قبل أن تسألوا التاريخ يحدثكم أن ضياء الشمس في مصر لا نظير له في أي أرض ، حتى قيل إنه السبب الأول في كثرة أمراض العيون بهذه البلاد . واسألوا العلم أيضاً يحدثكم أن الخصب في أرض مصر يفعل بأهلها ما لا يفعل الجدب ، لأن أبناءها يموتون بالبِطنة ، على حين يموت غيرهم بالجوع .

فما قولكم في أمة لا تعاني غير كثرة الزاد وقوة الضياء ؟

أكتب هذه الفقرة من هذا المقال في منتصف الساعة الخامسة من صباح اليوم الثلاثين من يولية ، بعد قضاء نحو ساعتين تحت أزيز الطيارات وضجيج المدافع ، وكان القمر — القمر المصري — يغمر الليل بنور وهاج يسمح بنظم الخيط في الإبرة بلا عناء .

أنا لا أبالغ ، فقد بدا لي أن أجرب ذلك في قر هذه الليلة ، ولم أفهم كيف تحرم وزارة الوقاية إضاءة المصابيح وقت الغارات في الليالي القمرات ، وهي تعلم أن اللثام المغيرين يهديهم القمر بأقوى مما تهديهم المصابيح ؟

وهذا الطيران الذي يهدد مصر بوقاحة ونذالة وسفاهة هو نفسه الطيران المدين أثقل الدَّين لجو هذه البلاد .

هل نسيتم ما حدثتكم به على صفحات الرسالة قبل عامين ؟

كنت حدثتكم أن الطائر المصري المسمَّى بالحِدأة — وهو طيرٌ جارح لا ينجبه غير جوّ مصر ، وإن وُجد بقلة في بعض الديار الشامية — كنت حدثتكم أن الحدأة هي المعلم الأول لعلم

الطيران ، وبها استهدى « مُوبَار » المسكين ، الذى ظل على سرير الموت ثلاثة أيام بإحدى الغرف السطحية فى شارع الموسكى بالقاهرة ، ولا أنيس لجسمه الميت غير أسراب من الحِدأة تراوحه وتناديه فى حسرة والتياع ، إلى أن تنبه لموته الجيران

فى ليلتى هذه عانت « مصر الجديدة » من صراع الطيارات المغيرة والمدافعة ما عانتْ ؛ مع أن مصر الجديدة هى الوطن لتمثال موبار ، موبار الذى نقل عن « الحدأة المصرية » علم الطيران

فيارَبَّ الأرباب ، ما الذى بقىَ مما طويت عن أوربا من أعاصير الغدر والعقوق ؟

إن الأمم الأوربية تحترم حياد الديار السويسرية ، فهل تعرفون لأى سبب يُحترم ذلك الحياد ، فى تلك البلاد ؟

هل كانت سويسرا مهد موسى أو عيسى أو محمد ؟ هل نشأ فيها بوذا أو كونفشيوس ؟ هل كانت ملاذ آدم حين هبط الأرض ؟

لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ، وإنما يحترم زعماء أوربا حياد سويسرا لتكون تلك الديار خزائن أمينة لما يدخرون من نفائس الأموال ، فهم يتضامنون تضامن الجشع لا تضامن الوفاء

فما ضرّهم لو أعفوا مصر من صيال الطيارات ، لأنها الوطن الذى أنجبَ علم الطيران ؟

ما ضرهم لو تذكروا دَين مصر فى أعناقهم ، وهى أول أُمة وضعت التقويم الشمسى ، فعلمت أُمم الأرض مواعيد الزرع والحصاد ؟

ما ضرّهم لو تذكّروا أن الفلاحين الذين سُخِّروا لحفر قناة السويس ملأوا جيوب الأوربيين بالملايين والبلايين من قطع الذهب الفتّان ؟

ما ضرهم لو تذكروا أننا ما بغينا عليهم ، وأن الفضل يرجع إلينا فى نقل علومهم وآدابهم إلى أقطار الشرق ؟

ما ضرّهم لو تذكّروا أن اليونان الذين علموهم لم يكونوا إلا تلاميذ المصريين ؟ وما ضرّهم لو تذكروا أنهم لم يفكروا فى تخليد عظيم من عظمائهم إلا بوحى من علم قدماء المصريين ؟

سويسرا تتمتّع بالحياد الدائم ، لأنها مُستودَع ذخائرهم وكنوزهم ، أما مصر فليس لها فى أذهانهم غير الصور التاريخية ، والويل كل الويل لمن يكن فى بمجد التاريخ !

ولكن مصر ، لو عقلوا ، صاحبة الفضل على أبنائهم فى العصر الحديث ؛ فقد أغنت منهم الألوف وألوف الألوف ، والضيمُ المخوف على مصر لن يُعنى أولئك الأبناء ، ولن تصاب مصر بأعنف مما يصابون ، فليجرب الأوربيون حظهم فى اضطهاد هذه البلاد ، ليروا أن مآلهم إلى الخسران

هل تذكرون قصة « هيس » أحد زعماء الألمان ؟

كان أول من فكر فى الصلح بطريقة جدية فامتطى طيارته من أرض الألمان إلى أرض البريطان ، ليتفاهم مع صديق له هناك ، ثم شاء الحزم الإنجليزى أن يحتاط فأوثقه بالقيود لئلا يكون فى دعوته من المحتالين

فكيف نشأت فكرة الصلح عند « هيس » ؟

تلك فكرة نقلها عن الروح المصرى ، وقد وُلد فى مصر ، ونشأ فى مصر ، محوطاً بالرعاية من جيرانه المسلمين ، ولعله حفظ الآية التى تقول : « وإن جَنَحوا للسَّلم فاجنحْ لها وتوكل على الله » فكان من أخباره فى الاصطدام بالأثرة الأوربية ما كان . وستعرف جلية هذا الخبر بعد زمن قصير أو طويل ؛ ولكن المؤكد أن نشأة هيس فى مصر هى التى فرضت عليه الشوق إلى الصفاء[1]

أما بعد فإن أنا مما أريد أن أقول ؟

هذا مقال غيرت عنوانه مرتين ، فقد كتبت شطره الأول فى صدر الليل ، وكتبت شطره الثانى حين كانت « نجمة الفجر » توهمنى أنها مصباح أرسلته الطائرات المغيرة لاستكشاف ضمير العداء

وكان لى مع نجمة الفجر تاريخ سجله « الموال » المعروف :

يا نجمة الفجر طُلّى وارجعى روحى
وسلّمى لى على اللّى عندهم روحى

كنت أراعى نجمة الفجر بسبب الحب ، فصرت أراعيها بسبب الحرب ، وإن شقائى ليتمرد كلما تذكرت أن موقفى موقف المشاهدين لا موقف المحاربين

ليس فى نيتى أن أمحو حرفاً من هذا المقال ، لأنى لا أريد أن أرجع إليه بالتغيير والتبديل ، فكيف كان البدء حتى ينسجم مع الختام ؟

لعلنى قلت إن صورة إيزيس وهى ترضع حوريس هى التى أوحت صورة العذراء وهى تحتضن المسيح . ولعلنى قلت إن مصر وجّهت العالم كله إلى فنون من معانى العظمة والخلود . ولعلنى قلت إنها هدت بنى آدم إلى فكرة الطيران فى سماء الواقع بعد أن هدتهم إلى الطيران فى سماء الخيال

(١) فرار هيس من ألمانيا شاهد صحيح على نفرته من الولوغ فى الدماء ، وقد استراح وأراح